

الرياح ، وينال منه الإمساء والإصباح ، ويدبر منه ما كان مقبلا .
وقديما بكى الشعر على الأطلال وبحث في أصباغها الناصلة وشواخعها
الناثلة عن الأشباح التي كانت تمرها والصور والظلال والأصوات
والذكريات التي وقعت عليها والنفس إزاء عوامل الفناء أشد
حساسية وإرهاقا منها إزاء عوامل الحياة ، لأن النفس من عالم
الوجود فلبست عوامل الحياة غريبة عليها غربة عوامل الفناء .
وعوامل الحياة تمدها بالطمانينة والأمل والشموخ بالاستمرار
والامتداد ، أما عوامل الفناء فتأخذ منها الطمانينة وتمطيها الرهبة
والشموخ بالنهاية وتقفها على حافة الجهول الذي مضى إلى هاويته
كل ما كان ويمضى إليها كل ما هو كائن .

والعجز هو مدخل الإيمان وحجته الهادئة التي لا جدال معها
لنطق . فهو إن كان يثير أشرف ما في النفس وأعظمه أترأ في
بناء روابط الاجتماع على أسس من الرحمة وال عاطفة ، فهو كذلك
يثير أشرف ما فيها وأعظمه أترأ في بناء الإيمان وروابط الإنسان
بالله على أسس من الفكر والادراك . وقفة واحدة غلصة من فكر
الإنسان الضئيل المحدود وسط هذا الكون الجبار الخافل بانتموى
ذات المول والاجتياح والرحابة والدوام ، والأجرام السماوية
ذات الأحجام والأرقام الفلكية ، كافية لأن تطلق من صدر
الإنسان آمة عميقة فيها الإقرار بالعجز والاستسلام والانكار
لزاعم القدرة والاستطالة ، وصرخة وجلة دامية فيها طلب المياد
والاحتفاء في صدر كن رحيم حنون ، وكنف قوى مأمون هو كنف
« الذي » بنى هذا الكون الهائل العاقل من هذه القوى الجبارة
العمياء المجنونة التي تسير في نظم والجسم تمسكها يد القهر فلا تفلت
ولا تلتوى ولا يجمح ا

وإذا كان غرور الحياة في بعض النفوس البشرية قد سؤل
لها أن تزعم مزاعم الاستكبار والإنكار ، فذلك لأنها نسيت عجزها
وضعفها وسجنها في هذا الكون الذي لا يستطيع منه مهربا إذ
دخلته على غير اختيار وستخرج منه على كره .

وهؤلاء الذين يثيرون بمنطقهم وجدلم وزخرف قولهم الشنب
والثورة على حكومة الكون ، ويعيبك أن تقنههم بالحجة الفالجة
والحق الدامغ ، تستطيع أن ترام يسرهون إلى الدخول فيما دخل إليه
جمهور الناس من إيمان إذا ما ضربهم الزمان بالعجز وقيدهم بقيوده
وطرحهم مطارح يرون فيها أنفسهم كائنات نافهة لا تملك لنفسها

العجز قوة

للاستاذ عبد المنعم خلاف

حينما أرى شيخوخة مهدمة فانية مدبرة الحياة تبحر جرح جسمها
التهالك كأنما تحمله حملا يهر الأنفاس ويهبي الأوصال ، في مزدحم
طريق مكتظ بأجسام القادرين على الزحام من الرجال ذوي
الألواح المريضة والأرجل الخفيفة والخطوات الناضية في خيلاء
الشباب وطفور القوة وعزة القدرة على نيل الأشياء ، وغرور
الجدعة بالحياة ، وقد احتدمت الحركة والجلبة ومضت « دواماتها »
الغنيقة بتلك الشيخوخة ترى بها الرامى وسط هذا العباب الزاخر
حينئذ أشمر أن هذا العجز يقبض على قلبي بقوة غالبية تجيش لها
نفسى وتستجيب لها استجابة لا أحسها في كثير من الأحيان التي
يطالعنى فيها مشهد من مشاهد القوة والاجتياح .

وحين أرى طفلى الصغيرة تبدأ حياتها منذ أن فصلت عن
حياة الرحم وكل سلاحها للعيش وآلاتها في الكفاح هو الصراخ
واستنجاد بقوى من يمحيطون بها من الوالدين والأقربين ، وتلك
الغمزات الخفية على قلبي الأم والأب ، غمز الرحمة لهذا الضعف في
هذا الجسم الصغير الضئيل الطريح الذي لا يملك دفع الذباب والنمال
عن نومه ولا جلب غذائه ، ومع ذلك فجميع من في البيت وما فيه
مسخر لرضاها والسهر على الدفاع عنها وجلب المسرة والنعمة لها ،
أشمر كذلك أن العجز قوة يسخر لها جهاد الأقوياء ، وأشرف
ما في النفوس البشرية من أريحية كريمة هي التي تبني الاجتماع
وتجمل الأخلاق وتعلو بمستوى الإنسان بل والحيوان .

ولقد أدركت من شيخوخة أمي رحمة الله في سنتها الأخيرتين
ما كان يثير في نفسى لونا من الحنان الفاصر والأشفاق والحساسية
التي تبعث الدمع الهادى ، اللذيذ حين كنت أرى ذلك العجز الذي
طرا عليها بمد قوة ولكنه مع ذلك سلاحها بقوى جميع من في
البيت ، وسخرم لها يخدمونها في لهفة ويكتمونها كل حاجتها
في رضا ويسألونها كذلك الرضا .

وهجز الشيخوخة أشد إثارة للرحمة والشموخ وال عاطفة من
عجز الطفولة ؛ لأنه يريك الهيكل البشرى في حالة من تاريخ قوته ،
تشمرا أنك معه إزاء طلل لبناء عزيز كان عامرا فأضحى غامرا ، تمفيه